

ضحايا السقوط

تتكرر حوادث جنائية معينة ، فيها قتل وفيها شروع في قتل ، وكلها ترجع في التعليل إلى سبب واحد هو الانتقام للعرض والشرف .

فمنذ مدة قريبة سمعنا أن جنودا بريطانيين وجدوا في الصحراء جثة فتاة قتيل في العشرين من عمرها فأبلغوا الخبر إلى سلطات البحث والتحقيق .

ومنذ مدة أخرى قيل أن ماء النيل حمل من الأطراف البعيدة جثة امرأة مخنوقة فنقلتها سلطات التحقيق والبحث إلى حيث تتجلى الحقيقة من شأنها .

ولا يكاد يمضي وقت طويل بين هذه الحوادث بعضها وبعض حتى يقال إن أبا أو أختا أو زوجا أو ابن عم الخ افتقد عرضه فلما وجدته مذبذولا في سوق الفحشاء مزق أحشاء أقرب الناس إليه أو حرقبتها بسكينه لأنها بذلت للهنك عرضها وعرضه ، والتعليل في السنة هؤلاء جميعا هو التعليل نفسه ، الدفاع عن العرض والمحافظة على الشرف .

وما من شك في أن القتل والشروع فيه جريمة تنكرها شريعة الله وشريعة الإنسان مهما كان سببها هكذا ، وإذا كان الحق أن التفريط في العرض جريمة لها في الشريعتين عقوبتها المعينة ، فالحق أيضا أنه لا شريعة الله ولا شريعة الإنسان تميز لأحد غير القائم على أمرها بالتنفيذ والمقاصة أن يأخذ حقه بيده ممن يجنون هذه الجريمة .

ولكن معيار الشعور بمعنى الشرف والعرض وبما يتصل بهما من كرامة الوجود الإنساني وما يدور معهما وجودا وعددا من خفض الرئوس وذل النفوس ، هذا المعيار يختلف صعودا وهبوطا بقدر ما تصيبه سيئات العصر من ضعف ووهن ، فهو في الريف أقوى منه في المدن ، وفي عامة أهل المدن أقوى منه في خاصتهم ، وذلك أنه كلما كانت دواعي الإغراء ووسائل العدوى أكثر في جانب من الناس كانت آثارها أظهر في هذا الجانب من غيره وكان هو أسبق إليهما من سواه ، ومن هنا يتفاوت غليان الدم في المروق وعضف الغضب بالأعصاب على حسب ما بين الناس من تفاوت في الشعور بقيمة العرض والشرف وفي تقدير معيارهما أيضا .

وقد يكون القتل في هذه الحالة نتيجة تصدور متضخم تدفعه الى النفس مفاجأة الصدمة فيخمد الى جانبه كل تصور آخر غير تصور العار الذي لا يحويه تطاول الزمن ولا تقوى عليه يد النسيان ، وكما يحدث القتل في هذه الحالة حين يكون التئيل بريئا مما نسب اليه كذلك يحدث حين تنسب اليه التهمة وهو غير برىء منها ، وفي المسألة على الحالمين جريمة لا يرضاهما شرع ولا قانون .

لكن على أى شيء تدل هذه الحوادث بعد أن أصبحت من الكثرة بحيث لا تنقطع أخبارها كل آن ؟

انها تدل على أمرين : أحدهما أن مقياس الحياء والتعصون أصبح — في النسبة العامة — أشد انخفاضا عند المرأة مما كان قبل هذا الزمن ، والثاني أن معيار الشعور بقيمة الشرف والعرض لم ينخفض كثيرا — في النسبة العامة أيضا — عند الرجل عن مستواه الذي كان له من قبل ، وفي كلا الحالمين تأتي النتيجة شرا في نفسها وفيما ينشأ عنها .

ولا ريب أن تقدير الشرف والاحتفاظ به والدفاع عنه حق لا يمنعه الا أن تعود الطبيعة الانسانية السليمة فترى السلامة في أن تجعل هذا الشرف أمرا اعتباريا محضاً ، غير أنه حق مقسوم بين طرفين ، فهو من حيث انشاؤه في النفوس وحرصها عليه حق الجميع ، ولكنه من حيث القصاص له والجزاء على هتكه أو التفريط فيه حق الله في شريعته الباقية وحق الهيئة الاجتماعية يؤديه قانونها القائم وسلطانها المنفذة .

فلو أن الناس يفهمون هذا ويعملون به في أنفسهم لما امتفاضت هذه الحوادث ولما ارتفعت نسبة ارتكابها الى مثل ما نرى مما لم تكن ترى مثله قبل هذه الأيام .

وليس من الرأي أن نتعلق بالرجاء فننتظر حتى يفهم الناس من هذا الحق ما لهم وما ليس لهم وأن نغان أهم متى فهموا ذلك الترموه فيما يصدر عنهم من تفكير أو عمل ، فقد أفسد هذا الرجاء أن التيار قوى جارف وأن أسباب الغواية والاستمراء أهدقت بالناس من كل جهة ، وملأت آذانهم وأعينهم في كل مرى ومسموع ، وزاحمتهم في الطرق والأسواق ، واقتحمت عليهم الدور ورافقت أهل كل بيت في خلوتهم الخاصة .

وانما يتجه الرجاء وينتهي الأمل الى وسيلة من وسائل الرقاية تمنع الأصحاء أن يصيبهم داء المرضى ، والى وسيلة أخرى من وسائل العلاج تمنع المرضى أن يشقوا بدائهم .

فاذا أمكن أن تضرب أسباب الغواية والاستمراء في مصادرها ومواردها ضربة تخرس الالسنه وتشل الحركات لما فتنت امرأة ولا فتاة بما ترى أو تسمع ؛ ولما صدم أب ولا أخ ولا قريب بما يترك نفسه خاوية من كل تصوّر غير تصوّر العار والانتقام

ولا تقول ان في هذا العلاج عصمة لكل أنثى من السقوط ولا ما نعا لكل رجل من الجريمة، ولحّا تقول إنه ككل علاج يكافح الوباء المنتشر، فهو يطارده ويسد منافذه ولا يقضى عليه .

ثم اذا شئنا أن ندل على أسباب الغواية والإستهواء لم نزد على أن نقول إن معرفتها تغنى عن الدلالة عليها ، ففي مقام المشاهدة برؤية العين هي مذايح الشرف ومجازر الكرامة ، أعنى تلك الملاهي الليلية المبسوثة في مختلف الأرجاء ، وفي مقام الاستماع هي صائحات الآذان وطارات القلوب ومختلصات الحياء والمجمل ومفشيات العدوى بين الأصحاء ، أعنى تلك الجوانب المفحشة من الأغاني المذاعة والروايات المثلة على المسارح وفي دور السينما .

ومما لاشيء في كتمانها غير الشر أن عار هذه المخزيات أصاب مصر في الأقطار الشرقية التي تسمع من الاذاعة ما يصدر عنها حتى لقد كرهت الأمم الكريمة في هذه الأقطار أن تسمع من الاذاعة المنسوبة الى مصر غير الأقل الذي يظهر أن مركز الاذاعة لا يهتم به اهتمامه بغيره كالقرآن الكريم وبعض المحاضرات العلمية والأدبية التي لها نفع وفيها روح .

فان بقي بعد ذلك شيء من الإبهام أو الخفاء فيما يحسن أن تضرب به أسباب الإستهواء وعوامل الغواية في مصادرها ومواردها جميعا وجب أن نقول في بيان ذلك أن أداة التشريع هي التي تستطيع أن تجد وسيلة الوقاية ووسيلة العلاج ، والأمر غاية في السهولة واليسر ، فهو ليس أكثر من أن تفرض بالتشريع التدابير الآتية :

١ - تمنع في الملاهي والمراقص منعا باتا تعرية الأجسام ، والرقص الذي يثير غرائز الفساد، والتمثيل الذي تعرض فيه حركات الأعضاء وكيفيات الأصوات عرضا فاحشا وحّا ، وكذلك الأغاني التي تسهل أمر الرذيلة وتحدث عنها وتعتزرها .

٢ - تمنع هذه الملاهي والمراقص من أن تقبل فيمن يذهبون إليها شبانا تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين .

٣ - يحدد لها وقت في السهر لا يتجاوز نصف الليل على الأكثر .

٤ - تفرض من طريق التشريع لا من طريق الإدارة رقابة جدية على الملاهي والمراقص ودور السينما وجميع ما تعرضه من الأفلام وكذلك على ما يوضع من الأغاني قبل تلجته والنساء به .

٥ - تعتبر كل مخالفة في حالة من هذه الحالات جريمة لها عقوبة رادعة ، وفي المخالفة الخاصة بقبول الشبان في المراقص والملاهي ونحوها يعاقب كل شاب يضبط في مرقص أو ملهى أو نحوه بنفس العقوبة .

٦ - يمنع نشر صور النساء كلما كانت خارجة عما يقرره العرف المصرى الثابت من حدود الاحتشام والعناية وما يعتبره هذا العرف من الأمور الفاضحة .

٧ - تراقب الاداب العامة فى الأسواق والشوارع والأندية والمجتمعات مراقبة تحقق القدر الذى يقتضيه القانون القائم الآن ، فى هذا القدر - إذا تحقق - حماية كافية للاداب العامة .

وصحيح أن أكثر ما تنفع جنائيات الدفاع عن العرض والانتقام له فى بلاد الريف ، ولكن يجب ألا نتمنى أن أمراض المدينة تنتقل عدواها إلى القرى بالسمع والتحدث ، وبالمشاهدة والاختلاط ، وباتردد الدائم بين القرى والحواضر ، ويظهر ذلك واضحاً أتم الوضوح إذا علمنا أن بلاد الريف أصبحت متصلة بالمدن وأن مسافة البعد بينها وبين المدن صارت الآن تحسب بالساعات والخطوات لا بالأيام والفراخ ، فكل مظاهر الحياة فى المدن المصرية تنعكس على ما حولها من القرى والبلدان ، وهكذا حتى تجمع بين طرفيها البعيد والقريب ما

م . هـ

— من عظم صغار المعصائب ابتلاه الله بكارها .

— ليس لأنفسكم تمن إلا الجنة فلا تبعوها إلا بها .

— من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته .

— زهدك فى راغب فىك نقصان حظ ، ورغبتك فى زاهد فىك ذل نفس .

— الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون فى حديثك فضيل عن عملك ، وأن تتقى الله فى نقل حديث غيرك .

على بن أبى طالب